من دفائن رسائل الجاحظ

Encore des Epistoles de Djâhizh.

وصل الينا قبل نحو شهرين مغلف ناقص الاجرة من ايران . ومن عادتنا ان نرفض كل مايرد الينا ناقص الابراد . ويتفق ان يقع لنا مثل هذا الامر مراراً عديدة في الشهر الواحد ؛ إلا اننا هذه المرة خالفنا عادتنا ، فقبلنا المغلف وأدينا ما وجب اداؤه من اتمام الاجرة لظننا انه من صديق عزيز لنا في فارس . ولما فضضناه ، اسقط في يدنا ، لاننا رأينا فيه رسالة دقيقة الحروف وليس بين كلمة وكلمة مفرز نقطة واحدة . وليس في الرسالة « رأس سطر » فانها من اولها الى آخرها متراصة الحروف والسطور لاتقرأ إلا بالمنظار . فالقيناها بين المهملات وندمنا على اننا ادينا عنها اتمام الابراد .

ومن بعد مضي شهر عليها او اكثر ، عدنا الى مطالعتها لنرى موضوعها فرأينا انها تحوي رسالتين للجاحظ : اولاهما « في تفضيل بني هاشم على من سواهم » وآخرتهما « في اثبات امامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام » ونطلب الى القراء ان يفيدونا عما يعرفون من نسخهما .

وقد وهم الناسخ في رسم كثير من الكلم حتى انه افسد بذلك بعض المعاني . ففي بعض المواطن امكننا ان نرجع الى مورد نعرفه فوردناه ، فاصلحنا الخطأ ، واما المواطن التي صعبت علينا معرفتها ، فابقيناها على علاتها ، تاركين التبعة على الناقل ، وهو الشيخ فضل الله الزنجاني ، الذي يلقي التبعة على ناقل النسخة التي ظفر بها .

وحضرة الكاتب الاديب لم يقل لنا اين وجد هاتين الرسالتين ، ولم يصف النسخة التي نقل عنها . ولا سنة كتابتها . والظاهر ان حضرته غير واقف على اصول النقل ولا على احكام النسخ وطبع المخطوطات ، والافادة التي افادنا اياها حضرته هي انه :

« نقل هاتين الرسالتين علي بن عيسى الاربلي ، من افاضل علماء القرن السابع في كتابه . ولولا نقله لهما ، لضاعتا كما ضاع امثالهما . فللموصليين : المتقدم

(علي بن عيسى) والمتأخر (الدكتور داود بك الجلبي) ، الفضل الكبير في حفظ آثار الجاحظ الخالدة » . انتهى كلام الشيخ الاديب .

رسالة للجاحظ في تفضيل بني هاشم على من سواهم

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم حفظك الله ، ان اصول الخصومات معروفة بينة وابوابها مشهورة ، كالخصومة بين الشعوبية والعرب ، والكوفي والبصري ، والعدناني والقحطاني ، فهذه الابواب الثلثة انقض للعقول السليمة وافسد للاخلاق الحسنة ، من المنازعة في القدر والتشبيه ، وفي الوعد والوعيد ، وفي الاسماء والاحكام ، وفي الآثار وتصحيح الاخبار . وانقض من هذه للعقول تمييز الرجال ، وترتيب الطبقات ، وذكر تقديم علي وابي بكر رضوان الله عليهما .

فاول الاشياء بك القصد ، وترك الهوى . فان اليهود نازعت النصارى في المسيح ، فلج بهما القول حتى قالت اليهود انه ابن يوسف النجار ، وانه لغير رشدة ، وانه صاحب نيرنج ، وخدع ، ومخاريق ، وناصب شرك ، وصياد سمك ، وصاحب شص وشبك ، فما يبلغ من عقل صياد ، وريب نجار ؟

وزعمت النصارى انه رب العالمين ، وخالق السموات والارضين ، والهه الاولين والآخرين . فلو وجدت اليهود اسوأ من ذلك القول لقالته فيه . ولو وجدت النصارى ارفع من ذلك القول لقالته فيه . وعلى هذا قال علي عليه السلام يهلك في رجلان : محب مفرط ، ومبغض مفرط . والرأي كل الرأي ، ان لايدعوك حب الصحابة الى بخس عترة الرسول ، صلعم ، حقوقهم وحظوظهم فان عمر ، لما كتبوا الدواوين ، وقدموا ذكره ، انكر ذلك وقال : ابدأوا بطرفي رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، وضعوا آل الخطاب ، حيث وضعهم الله . قالوا : فانت امير المؤمنين؟ فابى إلا تقديم بني هاشم ، وتأخير نفسه فلم ينكر عليه منكر ، وصوبوا رأيه وعدوا ذلك من مناقبه

واعلم ان الله لو اراد ان يسوي بين بني هاشم وبين الناس ، لما ابانهم بسهم ذوي القربى ، ولما قال : وانذر عشيرتك الاقربين ، وقال تعالى : وانه لذكر لك ولقومك ، واذا كان لقومه في ذلك ما ليس لغيرهم ، فكل من كان اقرب كان ارفع ولو سواهم بالناس لما حرم عليهم الصدقة ، وما هذا التحريم إلا لاكرامهم

على الله . ولذلك قال للعباس حيث طلب ولاية الصدقات قال لا اوليك غسالات خطايا الناس واوزارهم . بل اوليك سقاية الحاج والانفاق على زوار الله . ولذا كان رباه اول ربا وضع . ودم ربيعة بن حارث اول دم اهدر . لانهما القدوة في النفس والمال . ولهذا قال علي عليه السلام على منبر الجماعة: « نحن اهل بيت لا يقاس بنا احد » وصدق صلوات الله عليه كيف يقاس بقوم منهم رسول الله ، والاطيبان علي وفاطمة ، والسبطان الحسن والحسين ، والشهيدان اسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر وسيد الوادي عبد المطلب ، وساقي الحجيج العباس وحليم البطحاء والنجدة والخير فيهم والانصار انصارهم والمهاجر من هاجر اليهم ومعهم . والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحواري حواريهم وذو الشهادتين لانه شهد لهم ولا خير إلا فيهم ، ولهم ، ومنهم ، ومعهم . وقال عليه السلام ، فيما ابان به اهل بيته ، اني تارك فيكم الخليفتين : احدهما اكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، وعترتي اهل بيتي نبأني اللطيف الخبير ، انهما ان يفترقا ، حتى يردا علي الحوض . ولو كانوا كغيرهم ، لما قال عمر حين طلب مصاهرة علي : اني سمعت رسول الله (ص) يقول كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة ، إلا سببي ونسبي .

واعلم ان الرجل قد ينازع في تفضيل ماء دجلة على ماء الفرات ، فان لم يتحفظ ، وجد في قلبه على شارب ماء دجلة رقة لم يكن يجدها ، ووجد في قلبه غلظة على شارب ماء الفرات ، لم يكن يجدها فالحمد لله الذي جعلنا لا نفرق بين ابناء نبينا ورسلنا نحكم لجميع المرسلين بالتصديق ، ولجميع السلف بالولاية . ونخص بني هاشم بالمحبة ونعطي كل امرئ قسطه من المنزلة .

فاما علي بن ابي طالب عليه السلام ، فلو افردنا لايامه الشريفة ومقاماته الكريمة ، ومناقبه السنية ، كلاماً ، لاتينا في ذلك الطوامير الطوال . العرق صحيح ، والمنشأ كريم ، والشأن عظيم ، والعمل جسيم ، والعلم كثير ، والبيان عجيب ، واللسان خطيب ، والصدر رحيب . فاخلاقه وفق اعراقه ، وحديثه يشهد لقديمه ، وليس التدبير في وصف مثله ، إلا ذكر جمل قدره دون استقصاء جميع حقه .

فاذا كان كتابنا لايحتمل تفسير جميع امره ، ففي هذه الجملة بلاغ لمن اراد معرفة فضله . واما الحسن والحسين عليهما السلام ، فمثلهما مثل الشمس والقمر ، فمن اعطى مافي الشمس والقمر من المنافع العامة ، والنعم الشاملة التامة؟ ولو لم يكونا ابني علي من فاطمة عليها السلام ، ورفعت من وهمك كل رواية وكل سبب توجبه القرابة ، لكنت لاتقرن بهما احداً من جلة اولاد المهاجرين والصحابة ، إلّا اراك فيهما الانصاف من تصديق قول النبي (ص) انهما سيدا شباب اهل الجنة ، وجميع من هما ساوتهما سادة . والجنة لاتدخل إلّا بالصدق والصبر ، وإلّا بالحلم والعلم ، وإلّا بالطهارة والزهد ، وإلّا بالعبادة ، والطاعة الكثيرة ، والاعمال الشريفة ، والاجتهاد ، والاثرة ، والاخلاص في النية . فدل على ان حظهما في الاعمال المرضية ، والمذاهب الزكية فوق كل حظ .

واما محمد بن الحنفية ، فقد اقر الصادر والوارد ، والحاضر والبادي انه كان واحد دهره ، ورجل عصره ، وكان اتم الناس تماماً وكمالا .

واما علي بن الحسين عليه السلام . فالناس على اختلاف مذاهبهم ، مجمعون عليه لا يمتري احد في تدبيره ، ولا يشك احد في تقديمه . وكان اهل الحجاز يقولون : لم نر ثلثة في دهر ، يرجعون الى اب قريب كلهم يسمى علياً ، وكلهم يصلح للخلافة ، لتكامل خصال الخير فيهم ، يعنون علي بن الحسين بن علي عليهم السلام ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ، وعلي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهم . ولو عزونا بكتابنا هذا ترتيبهم ، لذكرنا رجال اولاد علي لصلبه ، وولد الحسين وعلي بن الحسين ، ومحمد بن عبدالله بن جعفر ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن العباس . إلّا انا ذكرنا جملة من القول فيهم ، فاقتصرنا من الكثير على القليل .

فاما النجدة ، فقد علم اصحاب الاخبار ، وحمال الاثار ، انهم لم يسمعوا بمثل نجدة علي بن ابي طالب عليه السلام وحمزة رضي الله عنه ؛ ولا بصبر جعفر الطيار ، رضوان الله عليه ، وليس في الارض قوم ، اثبت جناناً ، ولا اكثر مقتولا تحت ظلال السيوف ، ولا اجدر ان يقاتلوا ، وقد فرت الاخيار ، وذهبت الصنائع ، وحام ذوو البصيرة ، وجاد اهل النجدة من رجالات بني هاشم وهم كما قيل :

(شعر) وخام الكمي وطاح اللواء ولا تأكل الحرب إلا سمينا

وكذلك قال دغفل ، حين وصفهم : أنجاد ، أمجاد ، ذوو السنة حداد . وكذلك قال علي ، عليه السلام ، حين سئل عن بني هاشم وبني امية : نحن أنجد ، وأمجد ، واجود ، وهم أنكر ، وامكر ، واغدر . وقال ايضاً : نحن اطعم للطعام ، واضرب للهام ، وقد عرفت جفاء المكيين ، وطيش المدنيين ، واعراق بني هاشم مكية ، ومناسبهم مدنية .

ثم ليس في الارض احسن أخلاقاً ، ولا اطهر بشراً ، ولا ادوم دماثة ، ولا الين عريكة ، ولا اطيب عشيرة ، ولا ابعد من كبر منهم ، والحدة لايكاد يعدمها الحجازي ، والتهامي ، إلا ان حليمهم لايشق غباره ، وذلك في الخاص والجمهور ، على خلاف ذلك ، حتى تصير الى بني هاشم ، فالحلم في جمهورهم ، وذلك يوجد في الناس كلهم ، ولكنا نضمن انهم اتم الناس فضلا ، واقلهم نقصاً ، وحسن الخلق في البخيل اسرع ، وفي الذليل اوجد ، وفيهم مع فرط جودهم ، وظهور عزهم ، من البشر الحسن ، والاحتمال ، وكرم التفاضل ، مالا يوجد مع البخيل الموسر ، والذليل المكثر ، اللذين يجعلان البشر وقاية دون المال . وليس في الارض خصلة تدعو الى الطغيان ، والتهاون بالامور ، وتفسد العقول ، وتورث السكر ، إلا وهي تعتريهم ، وتعرض لهم ، دون غيرهم . اذ قد جمعوا من الشرف العالي ، والمغرس الكريم العز والمنعة ، مع ابقاء الناس عليهم ، والهيبة لهم . وهم في كل اوقاتهم ، وجميع اعصارهم ، فوق من هم ، على مثل ميلادهم في الهيئة الحسنة ، والمروة الظاهرة ، والاخلاق المرضية .

وقد عرف الحدث الغرير من فتيانهم ، وذوو المرامة من شبانهم ، انه ان افتري ، لم يفتر عليه ، وان ضرب ، لم يضرب . ثم لاتجده إلا قوي الشهوة بعيد الهمة ، كثير المعرفة ، مع خفة ذات اليد ، وتعثر الامور . ثم لا تجد عند أفسدهم شيئاً من المنكر ، إلا رأيت في غيره من الناس اكثر منه ، من مشايخ القبائل ، وجمهور العشائر . واذا كان فاضلهم فوق كل فاضل ، وناقصهم انقص من كل ناقص ، فاي دليل ادل ، واي برهان اوضح مما قلته . وقد علمت ان الرجل منهم ينعت بالتعظيم ، والرواية في دخول الجنة بغير حساب . ويتأول

القرآن له ؛ ويزاد في طمعه بكل حيلة ، وينقص من خوفه ، ويحتج له بان النار لا تمسه ؛ وانه ليشفع في مثل ربيعة ومضر . وانت تجد لهم مع ذلك العدد الكثير من الصوام ، والمصلين ، والمتألهين ، الذين لا يجاريهم احد ، ولا يقاربهم .

كان ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، يصلي في كل ليلة الف ركعة وكذا علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ، وعلي بن عبد الله بن العباس عليهم السلام ، مع الحلم والعلم ، وكظم الغيظ ، والصفح الجميل ، والاجتهاد المبرز . فلو ان خصلة من هذه الخصال ، او داعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم لهلك وأهلك .

واعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن ، ولم يتحملوا هذه البلوى ، إلا لما قدموا من العزائم التامة ، والادوات الممكنة ، ولم يكن الله ليزيدهم في المحنة إلا وهم يزدادون على شدة المحن خبراً ، وعلى التكشف تهذيباً .

وجملة اخرى مما لعلي بن ابي طالب عليه السلام ، خاصة الاب ابو طالب والجد عبد المطلب بن هاشم ، والام فاطمة بنت اسد بن هاشم ، والزوجة فاطمة بنت رسول الله صلعم سيدة نساء اهل الجنة ؛ والولد الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ؛ والاخ جعفر الطيار في الجنة ، والعم العباس ؛ وحمزة سيدا شهداء في الجنة ؛ والعمة صفية بنت عبد المطلب ، وابن العم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ واول هاشمي بين هاشميين كان في الارض ، ولد ابي طالب . والاعمال التي يستحق بها الخير اربعة : التقدم في الاسلام ، والذب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن الدين ، والفقه في الحلال والحرام ، والزهد في الدنيا . وهي مجتمعة في علي بن ابي طالب متفرقة في الصحابة . وفي علي يقول اسد بن وقيم يحرض عليه قريشاً ، وانه قد بلغ منهم على حداثة سنه ، ما لم يبلغه ذوو الاسنان :

في كل مجمع غاية اخزاكم ... جذع ابر على المذاكي القرح

لله دركم ألما تنكروا ... قد ينكر الضيم الكريم ويستحي

هذا ابن فاطمة الذي افناكم ... ذبحاً ويمشي آمنا لم يجرح

اين الكهول واين كل دعامة للمعضلات واين زين الابطح
افناهم ضرباً بكل مهند صلب وحد غراره لم يصفح

واما الجود فليس على ظهر الارض جواد جاهلي ، ولا اسلامي، ولا عربي ولا عجمي ، إلّا وجوده يكاد يصير بخلا اذا ذكر جود علي بن ابي طالب ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عباس . والمذكورون بالجود منهم كثير ، لكنا اقتصرنا ، ثم ليس في الارض قوم انطق خطيباً ولا اكثر بليغاً من غير تكلف ولا تكسب من بني هاشم . وقال ابو سفيان بن الحرث : (شعر)

لقد علمت قريش غير فخر بانا نحن اجودهم حصانا
واكثرهم دروعاً سابغات واصبرهم اذا طعنوا سنانا
وادفعهم عن الضرآء فيهم واثبتهم اذا نطقوا لسانا

ومما يضم الى جملة القول في فضل علي بن ابي طالب عليه السلام ، انه اطاع الله قبلهم ، ومعهم، وبعدهم: وامتحن بما لم يمتحن به ذو عزم ، وابتلي بما إنما يبتلى به ذو صبر . واما جملة القول في ولد علي عليهم السلام ، فان الناس لا يعظمون احداً من الناس إلّا بعد ان يصيبوا منهم ، وينالوا من فضلهم وإلّا بعد ان تظهر قدرتهم ، وهم معظمون قبل الاختبار ، وهم بذلك واثقون، وبه موقنون ، فلولا ان هناك سراً كريماً ، وخيماً عجيباً ، وفضلا مبيناً ، وعرقاً نامياً ، لاكتفوا بذلك التعظيم ، ولم يعانوا تلك التكاليف الشداد ، والمحن الغلاظ .

واما المنطق والخطب فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير والتحبير ، وعند الارتجال والبديهة ، وعند الاطناب والايجاز في وقتيهما، وكيف كان كلامه قاعداً وقائماً ، وفي الجماعات، ومنفرداً . مع الخبرة بالاحكام ، والعلم بالحلال والحرام ، وكيف كان عبدالله بن العباس رضوان الله عليه الذي كان يقال له « الحبر والبحر » . ومثل عمر بن الخطاب يقول له : غص يا غواص وشنشنة اعرفها من اخزم ، قلب عقول ، ولسان قؤول . ولو لم يكن لجماعتهم إلّا لسان زيد بن علي بن الحسين ، وعبدالله بن معاوية بن جعفر ، لقرعوا بهما جميع البلغاء ، وعلوا بهما على جميع الخطباء . ولذلك قالوا أجواد ، اجاد ،

ذوو السنة حداد .

وقد القيت اليك جملا من ذكر آل الرسول ، يستدل بالقليل منها على الكثير وبالبعض على الكل ، والبغية في ذكرهم ، انك متى عرفت منازلهم ، ومنازل طاعاتهم ، ومراتب اعمالهم ، واقدار افعالهم ، وشدة محنتهم ، واضفت ذلك الى حق القرابة ، كان ادنى ما يجب علينا وعليك الاحتجاج لهم ، وجعلت بدل التوقف في امرهم ؛ الرد على من اضاف اليهم مالا يليق بهم ، وقد تقدم من قولنا فيهم متفرقاً ومجملا ما اغنى من الاستقصاء في هذا الكتاب .

الى كاتب المشرق الناكر الاحسان

A l' écrivain ingrat.

جاء في الامثال السائرة : « من علمني حرفاً ، كنت له عبداً » وعسى انك لاتنسى اننا علمناك مدة ثلاث سنوات ، لا حرفاً او حرفين ، بل مئات من الحروف ولا زالت مسودات بعض مقالاتك محفوظة عندنا . تشهد شهادة صدق بأننا كابدنا الامرين لتلقينك شيئاً من العربية التي عدت الى جهل قواعدها واحكامها منذ ان ران على قلبك الهوى ونكران الجميل . وان كنت قد نسيت متاعبنا معك ، تلك التي يعرفها من كان يتردد الينا وقت تعليمنا اياك ، ولا ينساها من تعود الاختلاف الينا الى معهدنا هذا ، فادفع اجرة طبع تلك المسودات حفراً على المعدن ، ونحن ننشرها هنا .

ثم انك تأتينا في هذه الايام وتنشر في المشرق (٢٩ : ٣٣٢ الى ٣٤٠) مقالة وسمتها « طريقة في العلم معيبة » ونسيت نفسك ، اذ كل ما نشرته كأصل الحواري والداوية الى غيرهما مسروق برمته من كتب الادباء اذن :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

وفي مقالك من التبصبص للبعض والتنبنب لهم مالا مثيل له ، فتباً لمثل هذه الشنائع !

وعليه : سدونا بوجهك كل باب في الرد عليك ، الى ان تستعذر منا ، وتسير بموجب آداب النقد النزيهة . اما لغة العرب فلا تكتب بعد الآن شيئاً في حقك خيراً ولا شراً ، ولا تقبل من احد كلمة بهذا المعنى . والسلام .